تداخل المستويات اللغوية في الرواية الجزائرية المعاصرة قراءة نقدية في رواية "جذور وأجنحة" لـ : سليم بتقة.

أ / إبتسام لهلالي
جامعة محمد خيضر – بسكرة.

تمهيد:

اللغة هي عماد كل أمة والمرآة العاكسة لصورة الحضارات المتعددة. بل نستطيع القول بأنها سجل تاريخي تحتفي به كل شعوب العالم وتعتز به؛ لأنه الحامل والحافظ لثقافاتها وعاداتها وتقاليدها، لذلك أصبحت اللغة الوسيلة الأولى لتطور الأمم أواندثارها، وهذا الخيار يتوقف على مدى حماية كل أمة للغتها.

وفي عصر فرض وتعزيز لفكرة المركزية الغربية أصبحت اللغة هي المقصد الأول للصراعات والمعارك التي تبدأ بمحاربة اللغة الأم ثم التوغل في فكر وثقافة الأمة المقصودة، ويؤدي سقوط اللغة الأصلية من خلال محاربتها من طرف أنصار النزعة المتعالية إلى انجراف الأمة نحو الهاوية الاستعمارية بعدّ اللغة هي الذات والهوية والانتماء الوطني.

ولعل اللغة العربية أكبر شاهد على فكرة التمركز المسرف للذات الطامعة للغزو والانتشار على حساب باقي اللغات، وكانت بؤرةً لتوالي الاستعمارات الثقافية التي حاربت اللغة العربية في موطنها الأصلي. وراح بذلك العربي يبحث عن بديل لغوي يعبّر به عن آلامه وأحزانه نتيجة لذلك التطهير العرقي واللغوي الذي تمارسه حركة الغزو الثقافي، حتى أضحت اللغة العربية تعيش حالة من التغريب الذي كان سببه الأول الاستعمار الذي حاول

طمس الهوية العربية عبر محاربة لغتها الأصلية، التي يمكن اعتبارها عامل من عوامل تطور الأمة العربية في سابق العصور، خاصة وأنها لغة القرآن الكريم هذا الكتاب المقدس الذي يمثل التاريخ الكلي وحضارة وعادات ومعتقدات هذه الأمة، والسبب الثاني هو هجرة أبنائها لها، راكضين وراء عصر العولمة ومحاولة بلوغ مصاف الآداب العالمية.

وبالتالي أصبحت الثقافة العربية خاضعة «لمعادلة الإقصاء والاستبعاد من جهة، والاستحواذ السلبي والتنكر والتخفي من جهة، وهذا التعارض الذي يتحكم بالأنساق الثقافية أفضى إلى نتيجة خطيرة، وهي أن الثقافة العربية الحديثة أصبحت ثقافة "مطابقة" وليس ثقافة "اختلاف"»[1]. ثقافة لازالت تؤمن وتتقيد بفكرة التبعية لثقافة الآخر (المستعمِر) الذي ترى في ثقافته مشكاة تنير به الإنجازات التي تسمو إليها، ولكن هذا الإنجاز ما هو إلا نجاح مؤقت يُحسب للآخر لا للذات العربية؛ لأن: «الثقافة العربية لم تفلح في بلورة ملامح خاصة بها، وظلت أسيرة مجموعة من الرهانات المتصلة بغيرها»[2]، ذلك الغير الذي يحاول أن يثبت غيريته في أدبنا وثقافتنا العربية في مرأى من أهلها الذين لم يحرك ساكنا، وإنما أصبحوا من دعاة التعددية الثقافية التي ترى: «وجوب التعامل مع تنوع الجماعات الثقافية باعتباره حقيقة واقعة»[3] وهذا ما لاحظناه في الابداعات الأدبية التي اعترفت على لسان مؤلفها بأنها نصوص تنتمي للتعددية الثقافية وأن المبدع يعيش حالة من الازدواجية الثقافية اللغوية.

وبالنظر إلى بعض النصوص الأدبية الجزائرية المعاصرة بصفة عامة والروائية خاصة، نكتفي بالتعليق بأن اللغة العربية في وضعية كارثية، وضعها أبناؤها في مأزق ثقافي، بعدّ الجزائر بلداً اكتنز على ثروات ثقافية، حضارية وفكرية عاشت حالة الهجمة الاستعمارية من الاحتلال العثماني وصولا للفرنسي. فعلى الرّغم من زوال هذه الاستعمارات إلا أن آثاره التدميرية لازالت حية من خلال تهجين اللغة العربية التي انتقلت من المحيط المحلي إلى البيئة المثقفة «فلقد بذل الاستعمار الفرنسي قصارى جهده لطمس اللغة العربية ومحو معالمها بين أفراد الشعب الجزائري، فاعترض عليه التاريخ وخيّب آماله أن يفرض البدائل بدءً باللغة الفرنسية وانتهاء بإحلال اللهجات محل اللغة الفصحى»[4]، وبالتالي

كشفت الجزائر عن وجود ساحة صراع بين إثبات الذات والهوية والانتماء عبر التمسك باللغة العربية الحاملة لثقافتهم ومعتقداتهم وبين الحلم الذي أصبح يتسلل في الذات الحالمة للسير وراء ركب العالمية، وهكذا أصبحنا أمام صراع لغوي ثقافي يتحتم على هذا الصراع أن يفرز منتصرا ومغلوبا على أمره؛ لأن: «الانتصار في صراع اللغات إنما يمثل بداية لتاريخ الغالب (...) وتمكنه من فرض نفسه سيداً في العالم (...) ونهاية لتاريخ المغلوب وجوداً وهوية وثقافة وحضارة وقيما ومعتقدا»[5].

وإذا نظرنا إلى الرواية الجزائرية خاصة المعاصرة نجدها تعترف بأنها ساحة لهذا الصراع اللغوي وأن اللغة العربية الفصيحة تعيش حالة انتحار لغوي نتيجة التهجين، الذي أصبح السمة البارزة للغة العربية في النصوص الروائية الجزائرية نتيجة تبلور فكرة الازدواجية اللغوية لدى كتاب الرواية أو ممن يريدون احتراف الصناعة الروائية. وقد توفرت **"رواية جذور وأجنحة"** لمؤلفها **سليم بتقة** على تنوع في المستويات اللغوية؛ لأن الرواية «من أكثر الأجناس الأدبية لصوقا بالمستويات، وهذا عائد إلى اهتمامها بالحوار وتصوير الواقع بمختلف مستويات شخوصه»[6].وكأن المؤلف في حالة صراع داخلي بين أصله الثقافي وبيئته المحلية من جهة ومحاولته لركب حركة العولمة من جهة أخرى، هذا ما جعل نصه الروائي يرسم علاقات لغوية ثلاثية بين اللغة الفصحى، العامية (اللهجة)، اللغة الأجنبية (الفرنسية).

المستويات اللغوية في رواية جذور وأجنحة لـ: سليم بتقة

كشفت لنا رواية جذور وأجنحة على امتزاج لغوي بين اللغة الأجنبية (الفرنسية) واللهجة العامية واللغة العربية، لذا ارتأينا أن نصنف هذا التداخل اللغوي إلى مستويات:

مستوى اللغة الفرنسية:

أول ما يلاحظه القارئ حين يتصفح هذه الرواية هو طغيان اللغة الفرنسية في متون الرواية، وفي عملية إحصائية وجدنا أن اللغة الفرنسية في الرواية استحوذت على جزء كبير فيها، وهي ما يعادل 47 صفحة من مجموع صفحات الرواية وهذا يدل على أن الروائي قد بالغ في استخدام اللغة الفرنسية في التعبير وكأن اللغة العربية «لغة بدائية لا تقبل الجديد ولا التطور، ولا يمكن أن تمضي مع الإيقاع الحضاري أو تتكيّف مع الحركة العلمية»[7]. لذلك توجه

إلى لغة الآخر للتعبير عن بيئته وواقعه، رغم أن لغته الأصلية هي الوحيدة القادرة على الغوص في بيئته الاجتماعية ورصد قيّمها وثقافتها فهي لغة الذات، وليست لغة الآخر.

وقبل أن يلج الروائي في وصف عالمه المتخيل استفتح بشاهدة من أقوال لوسيان موريس دينزر Louisiane Maurice Denuziére :

«Un pays, comme un arbre, a besoin , pour grandir et résister aux intempéries, et racines profondément ancrées dans le sol ou dans le passé» .

هذه الانطلاقة تثبت وجهة نظر المؤلف المستندة إلى الرأي الذي يفيد بأن الاستشهاد بشواهد لأعلام أجانب ستثري من قيمة نصه على الرغم من هذا النص موجه إلى القارئ العربي والجزائري خاصة، وليس لمثقف فرنسي. وتبدأ أحداث الرواية بحوار مطول بين فابيان (Fabian) و(Commadant)، هذا ما استفز قراءتنا وطرحنا تساؤلا: لماذا لم يكن الحوار بين المجند والقائد العسكري؟ أم أن هذه المصطلحات لا يمكن أن تترك آثارا جمالية في هذا النص الروائي؟ أو أن نصنا الروائي لا يفي بإثارة المتلقي إلا إذا اعتمد مصطلحات أجنبية؟

في جزء آخر من أحداث رواية **"جذور وأجنحة"** أراد هذا المجنَّد/Fabian كما يورد المؤلف أن يتوجه إلى الجنوب ليرتاح من فوضى الحرب ويتجنب مخاطرها، فدخل في حوار مطول مع القائد العسكري/ Le Commandant:

« Le bureau du commandant s'il vous plait ?.

Au fond du couloir .

Merci.

Vous étes fabian , le soldat fabian de Gorland du cinquiéme régiment.

Oui mon commandant , répliqua fabian .

Je vois ici que vous étes effectué au sud !»[8]

ويستمر هذا الحوار بلغة فرنسية في صورة توحي بخطر يحاول أن يفتك من اللغة العربية، التي أصبحت لدى البعض سواء الطبقة المثقفة أو العامية هي اللغة الثانية فالخطر ليس في «اكتساب اللغة الأجنبية وإنما الخطر في الزهد فيها»[9]وهذا ما لمسناه عند المؤلف سليم بتقة الذي راح يتغنى ويمجد اللغة المكتسبة التي أصبحت ندا للغته الطبيعية والمنبثقة من تراثه وحضارة أمته والحاملة لبقايا تاريخه.

وتستمر شواهده بأدباء فرنسيين وهذه المرة مع موباسن Guy de Maupassant الذي يتحدث عن أهمية السفر من خلال قوله:

«Le voyage est une espéce de porte par ou l'on sort de la realité pour pénétrer dans une autre réalité inexplorée qui semble un réve»[10].

وهكذا يستمر اعتماد المؤلف على اللغة الفرنسية في باقي صفحات الرواية التي يثبت صاحبها أنه من أنصار الازدواجية اللغوية الذين يرون بأن «التعدد اللغوي هو الأصل ولو كان يمكن للعالم أن يكون أحادي اللغة لما حدث فيه صراع»[11].

وبالتالي يرفع الستار عن إشكالية التعدد اللغوي الذي يعتبر نتيجة للتبعية الثقافية التي يعيشها أبناء اللغة العربية في عصرنا الحالي. وهذا الاشكال سيؤدي إلى «تمزيق النسيج الداخلي لتلك الثقافة إلى درجة أصبحت فيها التناقضات والتعارضات ظاهرة لا تخفى»[12]،

وهكذا أصبح المثقف الجزائري يعيش حالتين متناقضتين بين ماضيه العريق الذي يقوم على أصالة لغته العريقة المستمدة من دينه ومعتقداته وبين حاضر يسير وراء العولمة دون مقاومة «وفي غياب القوة المضادة التي كانت تعمل على نوع من التوازن اكتسحت القوة الأحادية العالم وفرضت النظام العالمي الجديد»[13]، الذي يؤمن بنزعة تعالي الآخر/الغربي على الأنا والذات.

مستوى اللهجة العامية:

اعتمد المؤلف سليم بتقة على مستوى لغوي آخر هو استخدام اللهجة المحلية التي نراها تشويها لنصه الروائي الموجه إلى طبقة معينة من هذا المجتمع. وحاول من خلال تلك اللهجة أن يمثل معادلا موضوعيا للواقع الذي يعبّر عنه. وساهمت سيطرتها على النص الروائي في الانتقال من حالة المقدس اللغوي إلى الانحطاط اللهجوي. وبالتالي زودتنا بصورة تشويهية لرواية جذور وأجنحة وزادت من نسبة المخاطر التي تواجه اللغة العربية وأصبحت تتأرجح بين قيم الثبوت وقوى التحوّل، وعليه فإن «اللغات الأجنبية لم تعد هي العدو الأول للغة العربية، وإنما الذي حل محله في هذا العداء الشرس الناقد، والذي في مستطاعه أن يجهز على العربية فيذهب بريحها، هو اللهجات العامية حين تكتسح المجال الحيوي للفصحى»[14]، وما يتجلى في الرواية التي بين أيدينا هو أن هذا العامل اللغوي شكّل مساحة مهمة واستحوذ على عدة صفحات من هذا النص أي ما يقارب 38 صفحة وكلها عبارة عن حوارات بين أهالي الدشرة:

« واش ناويين هاذو الكفار ؟

يظهر لي حابين يحطو على سيدي لحسن عساس !!

تعينلك الكاريطا ليبناوها باش يسكنو فيها الذيابا... يا وباش كونترولي الرايح والجاي يا الراقد»[15].

ثم يواصل سرده لتفاعل الشخصيات الريفية فيما بينها:

« لمطار توخرت هذا العام وربي يستر
واش رايكم في وعدة سيدي لحسن؟.. راهي قربت.. بلاك ربي يجري ببراكاتو السواقي»[16]
وتستمر باقي الحوارات بين أهالي الدشرة باللهجة العامية.

هذا هو واقع اللغة العربية في رواية **"جذور وأجنحة"** التي سار مؤلفها سليم بتقة وراء القول الذي يرى بأن الرواية «تحاول في أحيان كثيرة أن ترسم الواقع، أو أن توهم بالواقع، ولا بد لها في سبيل بلوغ هذا الهدف من أن تعتمد على شخوص ينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة، ومن أن تنقل لنا حوارات تدور بين الناس العاديين في حياتهم اليومية (...) وتضطر في سبيل ذلك إلى محاولة ردم الهوة القائمة بين الفصحى والعامية»[17] وهذا ما أدى إلى كارثة لغوية حقيقية حين أضحت اللهجة هي الرسالة التي يمررها المثقف إلى أمثاله من أفراد المجتمع، رغم أنه هو الوحيد المسؤول عن تدهور حالة اللغة العربية التي أصبحت في وضع يوشك بانهيار هذه اللغة. وبالتالي ستنهار معها حضارة وتاريخ أمة بأكملها وتصبح الأمة العربية بصفة عامة بلا مشروع لغوي وحاملة للواء المعاصرة، التي تنقسم إلى شقين: إما الانتصار للغة الأجنبية وتكريس مبدأ التبعية أو التماهي مع اللهجة العامية حتى يصبح الإنسان المثقف والعادي ناطقين بلغة واحدة.

مستوى الفصحى المعاصرة:

يلاحظ اللغة الفصحى في رواية جذور وأجنحة هي أنها فصحى معاصرة؛ بمعنى هي اللغة التي يمكن أن تواكب الواقع بكل تحولاته واضطراباته، والمفتقرة للألفاظ الفصيحة الصعبة من جهة و متيسرة الفهم للفكر العامي. وبالتالي تعبّر عن مستوى وحالة لغوية بين الفصحى والعامية وهذا المستوى «يستمد عناصره ومكوناته الأساسية ويكيف فيه عناصر أخرى من العامية ذات أصول فصيحة، وتقترض ألفاظا من اللغات الأجنبية»[18] هذه هي الفصحى المعاصرة التي أصبحت خروجا عن الأصل الفصيح وملاءمة لتردي الوضع اللغوي لدى المثقف الجزائري.

وخلافا لاستعمال اللغة الفرنسية واللهجة العامية في الرواية والتي اقتصرت على الحوارات فقط، سادت اللغة الفصحى كأسلوب للسرد قدَّم من خلاله المؤلف أحداث وشخوص رواياته. من خلال هذه المقاطع المختارة من الرواية:

«خرج فابيان في رحلة طويلة باتجاه الجنوب وقلبه يكاد ينفطر من الفرح لقد كان قاب قوسين أو أدنى من الهلاك إثر تعرضه لنيران صديقة في معركة التل الشرقي، وظل قابعا في المستشفى فاقدا للوعي لأيام طويلة»[19].

«يقتطع تذكرة القطار المتجه نحو الجنوب... بعد انتظار طويل يصل القطار... يقفز إلى العربة الأخيرة.. يضع أغراضه أمامه.. ينظر محاذرًا إلى الركاب.. إلى رجال نحيلين في ثياب رثة لهم عيون الحداءات ومناقيرها»[20].

«لم يستطع النوم تلك الليلة... نهض وصعد سطح البحر.. كل شيء حالك في هذه الصحراء... وكأنها في الليل لا وجود لها... أخذ قلمه وراح يكتب عن اللحظات التي قضاها في الدشرة»[21].

نلحظ أن السمة الأساسية للفصحى المفعمة بالألفاظ الفخمة ،الصعبة والغامضة لدى القارئ العادي غير متوفرة، وما لمسناه هو لغة عربية معاصرة خالية ومفتقرة لفصيح خالص، وملائمة للفهم البسيط ولكل المستويات الثقافية العادية. وبالتالي اللغة الروائية للمؤلف سليم بتقة خاضعة لمؤثرات خارجية وداخلية وقابلة للتأثر والتأثير، وهذا ما أنتج لغة معاصرة نتيجة للاحتكاك اللغوي والصراعات المتعددة سواء مع اللغة الدخيلة/الفرنسية أم اللهجة المحلية التي أرادت أن تفرض نفسها في النصوص الأدبية.

وهذه المخاطر التي تتعرض لها اللغة العربية في زمن العولمة والمعاصرة هو تهديد حقيقي لديمومتها وإنذار لوجود نواميس لغوية تفرض نفسها ضد اللغة العربية، ومثّلت رواية جذور

وأجنحة لـ: سليم بتقة نموذجا لتردي وضع العربية وحالة الانتحار اللغوي في بعض الأعمال الأدبية الجزائرية المعاصرة.

سبل النهوض بالفصحى العربية:

بعد استتعراضنا للمستويات اللغوية في رواية "**جذور وأجنحة**" للمؤلف سليم بتقة، التي تمثل نموذجاً من عدة نماذج تهدد استقرار اللغة العربية وواقعها في ظل سيطرت اللغات الأجنبية واللهجات المحلية. لا بد من وقف هذا المد الخطير، وإلا وجدنا أنفسنا أمام أمة خالية من تاريخ وثقافة ولغة، على الرغم من خير أمة أخرجت للناس وأن أعظم الكتب المقدسة (القرآن الكريم) كُتب بلغة عربية فصيحة.

وفي عصر هيمنة فكرة المركزية الأوروبية فإنه لا بد من وجود سبل أساسيات نعتمد عليها لمواجهة تلك الهجمة التي تقوم على محاربة الآخر العربي بالنسبة إليها وأن «إجبار لغتنا على التقهقر والانسحاب بل الموت من على ألسنة أبنائها وأقلامها إجبار لأهل هذه اللغة على الانزواء والانسحاب والتخلف والاستسلام لقوى الهيمنة»[22] ولعلنا نفترض بعض الحلول للحد من التبعية للآخر والهيمنة الاستعمارية واستشراف آفاق جديدة تعيد اللغة العربية الفصحى إلى مكانتها القومية والعالمية:

- ضرورة التعليم الصحيح للغة الفصحى في الأطوار التعليمية الأولى؛ لأنها من أساسيات رواج واستقبال هذه اللغة بين أهلها.
- الحد من استعمال اللهجات العامية في مؤسسات التعليمية.
- لا بد من الاقتناع بأن اللغة العربية هي لغة مقدَّسة وقادرة على التعبير، ومواكبة مختلف تطلعات العصر.

- إن الانتصار للغة العربية هو انتصار للوجود والهوية والذات.
- مواكبة حركة الأدب العالمي من خلال البيئة المحلية واللغة القومية؛ لأن من سبقونا في ركب العالمية انطلقوا من لغاتهم القومية مثل: فيكتور هيغو، جوته، شكسبير...الخ.
- اللجوء إلى التعريب للحد من غزو اللغات الأجنبية.
- الاهتمام والمحافظة على تاريخنا وثقافتنا يكون عبر الامتنان للغة العربية وإمكانياتها.
- إبعاد اللغة العربية عن حالة التهجين التي تعيشها اليوم جراء الصاقها بمؤثرات خارجية وداخلية.

الهوامـش والمراجـــع

[1] عبد الله ابراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2004، ص5.

[2] المرجع نفسه: ص6.

[3] حسام الدين علي مجيد: إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر: جدلية الاندماج والتنوع، سلسلة أطروحات الدكتوراه، مركز دراسات لوحدة العربية، ط1، بيروت، 2010، ص188.

[4] عبد السلام المسدي: العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2011، ص57.

[5] هادي نهر: اللغة العربية وتحديات العولمة، عالم الكتب الحديث، ط1، اربد، الأردن، 2010، ص7.

[6] حسن حمزة: المستويات اللغوية في العربية المعاصرة، سلسلة محاضرات الجامعة الأمريكية في بيروت، 2010، (دص).

[7] هادي نهر: اللغة العربية وتحديات العولمة، ص21.

[8] سليم بتقة: جذور وأجنحة (رواية)، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، ط1، بسكرة، الجزائر، 2014، ص7.

[9] عبد السلام المسدي: العرب والانتحار اللغوي، ص166.

[10] الرواية: ص7.

[11] لويس جان كالفي: حرب اللغات والسياسات اللغوية، تر: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، 2008، ص19.

[12] عبد الله ابراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص5.

[13] رعد شمس الدين الكيلاني: العولمة وتاريخ الصراع مع الغرب، دار الجنان للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2012، ص8.

[14] عبد السلام المسدي: العرب والانتحار اللغوي، ص20.

[15] الرواية: ص17.

[16] الرواية: ص18.

[17] حسن حمزة: المستويات اللغوية في العربية المعاصرة، (د.ص).

[18] رحمون حكيم: مستويات استعمال اللغة العربية بين الواقع والبديل، إشراف صالح بلعيد، قسم الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، مذكرة ماجستير، 2011، ص115.

[19] الرواية: ص8.

[20] المصدر نفسه: ص9، 10.

[21] المصدر نفسه: ص43.
[22] هادي نهر: اللغة العربية وتحديات العولمة، ص2.